

المَدَاحُ فِي المَتَخِيلَةِ الشَّعْبِيَّةِ الجَزَائِرِيَّةِ. شعر سيدي لخضر بن خلوف نموذجاً

عبد الكريم حمو⁽¹⁾

المقدمة

إنَّ موضوع "المديح" ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالتراث العربي والإسلامي، وازداد وضوحاً وجلاءً مع اتساع الإسلام وفلسفاته المعرفية والصوفية، بحيث أصبحت الصوفية كما يقول محمد أركون «مثلها مثل الدين في مجمله، مرتبطة بالنظام الثقافي والسياسي الذي تتجلى داخله»¹، كما نجد هذا التأثير بارزاً في الوسط الشعبي الجزائري إذ ظهرت مئات القصائد والأزجال والموشحات المليئة بالعواطف الدينية والإنسانية التي ذكت بدورها رغبات "المادح" وغاياته الدينية والاجتماعية والترفيهية.

وبالتالي أصبح "المَدَاحُ" الصوت النابض الحي الذي هجر الرقود والخمول، وانطلق لسانه يلهج بممدوحه وموصوفه، ويتغنى به في الأسفار والأسفار وفي الحواضر والأمصار، ولا شك أنَّ المَدَاحَ النبوية لعبت دوراً محورياً في إظهار حقيقة "المَدَاحُ" وتطلعاته وغاياته، فهي لون أدبي ذو مرجعية متأصلة وحقيقية حيوية معاصرة.

وغير بعيد نجد في ذاكرتنا الشعبية مديح الشاعر سيدي لخضر بن خلوف، الذي لا يقل مدحه أهمية عن أشعار البوصيري وابن دقيق العيد²، والذي استلهم من كتابات القاضي عياض³ ولسان الدين بن الخطيب...

⁽¹⁾ Centre de Recherche en Anthropologie Sociale et Culturelle, 31000, Oran, Algérie

¹ أركون، محمد (1992)، *الفكر الإسلامي نقد واجتهاد*، ترجمة: هاشم صالح، بيروت ولندن، دار الساقي، ط2، ص.159.

² ينظر: الجيراري، عباس (1982)، *الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها*، الدار البيضاء-المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، ط2، ص.141.

ومن هنا نتساءل: ما هي مميزات المدّاح في الثقافة الشعبيّة الجزائريّة؟
يمكننا بداية تصنيف اتجاهين للمديح:

1- اتجاه شعري رسمي عبّرت عنه موضوعات الشّعْر الفصيح ابتداء من أشعار كعب بن زهير وأشعار البوصيري.. إلى وقتنا الحالي.

2- اتجاه شعري شعبي عبّرت عنه قصائد شعراء الملحون، ممثلاً في أشعار سيدي لخضر بن خلوف وأشعار سعيد المنداسي وأحمد بن تريكلي ومحمد بن مسايب وبومدين بن سهلة... دون أن ننسى دور المداحات الشعبيّات في الأزفة والمولوديات، مستعملين آلات إيقاعية بسيطة كآلة البندير والدربوكة والرباب، متأثرين بما خلفه الرّصيد الشّعري الملحون والرّصيد السماعي الصوفي، أمثال المداحة خيرة السبّاحية⁴... التي تأثرت بأشعار سيدي لخضر بن خلوف.

وكل هذه الاتجاهات طغت عليها معاني التّصوف والمعارف الدينيّة والفلسفيّة، بحكم أنّ بلاد الجزائر كانت محطة الأولياء الصالحين وأهل الطرق الصوفيّة والإشراقية خاصة أثناء حكم المرابطين ثم مع الموحدين⁵ في بلاد المغرب العربيّ.

أولاً: تعرف المدّح والمديح والمدّاح.

أ. تعريف المدّح

الميم والدادل والحاء أصلٌ صحيح يدلُّ على وصفٍ محاسنٍ بكلامٍ جميلٍ⁶. وجاء في (الصحاح) أنّ مدّحه: أي أحسن الثناء عليه، ونقيضه الهجاء، والمدّحُ بمعنى الوصف الجميل يقابله الدّم، وبمعنى عدّ المآثر ويقابله الهجو⁷.

³ خاصة كتاب "الشفاء" الذي تناول وصفاً دقيقاً لشمائل المصطفى عليه السلام وصفاته الحلقية والخلقية.

⁴ ينظر: بن فافا، خالد (2009)، "المداحات، تاريخ وأصالة"، كراسات المركز، رقم 17، ص. 60.

⁵ ينظر: بومديني، بلقاسم (2009)، "المنابع الثقافيّة لأغاني ناس الغيوان"، كراسات المركز، رقم 17، ص. 60.

⁶ ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ، 308/5، مادة "مدح".

⁷ الجوهري (1989)، الصحاح في اللغة، مكتبة لبنان، ص. 563، مادة "مدح".

وجاء في (لسان العرب): أن المدح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء⁸، وجاء في (تاج العروس): أن المدح هو الثناء الحسن⁹ والمدح هو ما يمدح به من الشعر¹⁰، و المدح هو فن الثناء والإكبار والاحترام¹¹.

فالمصدر هو المدح، والمدحة الاسم، والجمع مدح، وهو المديح والجمع المدائح والأماديح، ومنه صيغة المبالغة "مدائح"، والمدح هو الثناء باللسان على الجميل مطلقاً¹²، وهو يقع على الحي وغيره.

ب. المدح في المعتقد الصوفي

هو أن يكون المدح مقصده لوجه الله تعالى من غير طمع وتشوق لدنيا، وأن ينبع من صميم الفؤاد، من غير كدر أو ضجر، ولذلك يقال: إذا أخلص المداح "فإن له من الفقر سبعة قراريط". ويرى مشايخ الطرق الصوفية أن هناك شروطاً يجب أن تتوافر في المداح منها:

- 1- أن يكون فقيراً إلى الله زاهداً في الدنيا وزخرفتها.
- 2- أن يأذن له شيخ الطريقة أو صاحب الجمع أن ينشد.
- 3- أن ينشد الجمع ما يوجد بداخل قلوبهم من كلام الحقائق.
- 4- أن يكون نديم شيخ المجلس أو عارف بروحه وقلبه.
- 5- أن يكون صاحب حال ووجد.
- 6- أن يكون بهلواناً؛ بمعنى أن يكون مدادياً¹³.

⁸ ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار الفكر ودار صادر، 589/2، مادة "مدح".

⁹ الزبيدي، تاج العروس (1969)، تحقيق: حسين نصار، الكويت، مطبعة حكومة 125/6. مادة

"مدح".

¹⁰ ينظر: عبد العزيز نبوي، دراسات في الأدب الجاهلي، القاهرة، مصر للخدمات الطباعة، ط2، ص.178.

¹¹ الدهان، سامي (1968)، المدح، دار المعارف بمصر، ص.5.

¹² التهنائي، محمد علي، كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، تقديم: رفيق العجم، بدون

تاريخ، 772/1، مادة "مدح".

¹³ ينظر: الشرقاوي، حسن (1987)، معجم ألفاظ الصوفية، مصر، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، ص. 244.

الاتجاه الأول

الشعر هو أداة التعبير الإبداعي الأولى التي تعبر عن تجربة العربي الفكرية والثقافية والحياتية، وبعد مجيء الإسلام صار الشعر العربي أول الفنون الإسلامية، ليس فقط لأن العرب شكلوا النواة الأولى للمجتمع الإسلامي، ولكن بسبب الدور الذي لعبه في بدايات الدعوة الإسلامية وفي نشر لغة الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في العصور اللاحقة، وفي هذا السياق ظهر لون المديح النبوي على يد زمرة من الشعراء الذين دافعوا عن الإسلام ورسوله الكريم، وكان منهم حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، ومن النساء ميمونة بنت عبد الله البلوية¹⁴.

ومما لا شك فيه أنّ حسّان بن ثابت كان يحظى بمنزلة رفيعة عند رسول الله، ولقد تفوق بشعره حيث مدح النبي وأعلى من شأنه، ووصف الغزوات والحروب وهجى المشركين وفضح المنافقين، بحيث كان شعره يسقط على المشركين كالنبال، ويروى أن الرسول(ص) قال له: "أهجوأ قريشاً، فإنه أشدّ عليهما من رشق بالنبال"¹⁵، وبذلك سمّي بـ «شاعر الرسول»، ولكن أعتُبر شعره قد ضعفَ وقلَّ إبداعاً مقارنةً قبل مجي الإسلام¹⁶.

فهذا الاتجاه يعبر بحق عن تغلغل الشعر المدحي في التراث العربي والإسلامي، إذ ألفينا زمرة من الشعراء قد اقتحموا هذا الفن وعبروا عما في نفوسهم من حب وشوق بألفاظ مليئة بالمعاني والأحاسيس، ويعد فن المديح من أبرز أغراض الشعر العربي المتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع الفخر وإبراز حال المدوح، حيث كان الشعراء الجاهليون يمدحون قبائلهم وأسيادهم بكثير من المعاني التي كانوا يذكرونها، ونذكر منهم الشاعر زهير بن أبي سلمى أكبر شعراء العرب الذين أوقفوا أغلب شعرهم على غرض المديح الحقيقي الذي يتوخى إشاعة القيم الأخلاقية في المجتمع العربي آنذاك.

¹⁴ ينظر: الشايب، أحمد، تاريخ الشعر السياسي الى منتصف القرن الثاني، بيروت، دار القلم، ط 6، ص. 100.

¹⁵ أبي الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمود فؤاد عبد الباقي، دار احياء الكتب العربي، رقم 157، 4/ 1935.

¹⁶ ينظر: عباس، احسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، بيروت، دار الثقافة، 48/3.

وإنَّ أهمَّ ميزة مدح زهير أنه كان يفرغه في صفة معينة في ممدوحية أو الإشادة بعمل معين من أعمالهم¹⁷، وأنه لم يخلط مدحه بالفخر أو الشكوى أو نحو ذلك مما يشوب مدح غيره¹⁸، ولزهير معان ودلالات في المدح تدلُّ على إجادته هذا الفن وخبرته فيه، مثل قوله¹⁹:

قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَغُونَ الْخَيْرَ فِي هَرَمٍ
وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طَرَقًا

وقوله²⁰:

تَرَاهُ إِذَا مَا جَنَّتْهُ مَتَهَلَّلًا
كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الذِّي أَنْتَ سَأَلْتَهُ

ومن أهمِّ قصائده لامية كعب بن زهير بن أبي سلمى ومطلعها²¹:

بَأَنْتَ سَعَادُ فِقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ
مُتَيْمٌ إِشْرَاهَا لِمُ يَفِدُ مَكْبُولٌ

التي اشتهرت باسم «بأنت سعاد» لكنها عُرفت أيضاً باسم البردة لأن النبي عليه السلام وهب كعباً بردته حين مدحه بهذه القصيدة. وتعد من أشهر قصائد الشعر العربي حتى قيل لا يكاد ناطق بالضاد لا يسمع بها، حيث تعلقت موضوعاتها بمدح خير البرية ونور الاسلام السمح، وأن الرسول نور يستضاء به، وسيف من سيوف الله، وإلى أن العفو عنده مأمول. وبالتالي فهذه القصيدة النبوية أعطت قيم جديدة وروح مستمرة لفنّ المديح النبوي منذ ذلك التاريخ على الأقل حتى مجيء رائد المداحين.

يعد البوصيري رائد المداحين في عصره وفي عصور لاحقة، ولد سنة 608هـ وتوفي سنة 696هـ، وقد ارتبط اسمه بالشعر وبشكل خاص بالمديح النبوي حتى عد من الشعراء الذين مثلوا تطوراً بارزاً في الاتجاه الديني ضمن الحركة الأدبية والفكرية التي نشطت في عهد المماليك في مصر والشام، وعهد التتر²²، وكانت البردة وما تزال عند بعض الناس من الأوراد التي تُقرأ

¹⁷ ينظر: أحمد شوقي، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، مصر، 273/2.

¹⁸ ينظر: المصدر السابق، 273/2.

¹⁹ ينظر: أحمد شوقي، تاريخ الأدب العربي، 278/2.

²⁰ بن أبي سلمى، زهير، الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، بيروت-لبنان، دار الافاق الجديدة، 3، ص. 57.

²¹ المرجع السابق، ص. 102.

²² ينظر: فرّوخ، عمر (1984)، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، بيروت، دار العلم للملايين، 559/4.

في الصباح والمساء في هيبة وخشوع²³، حيث جاءت أشعاره نموذجاً مكتملاً لأصول المديح النبوي والتي يقول في "نهج البردة"²⁴:

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْنِ وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ
هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِكُلِّ هَوَلٍ مِنَ الْأَهْوَالِ مُقْتَحِمٍ

فقد اشتهر بشعره في المدائح النبوية، وهو من أرقى الشعر وأجوده، ومن قرأ قصائده كما في البردة الميمية والقصيدة الهمزية وبقية قصائده في ديوانه، فقد منح الله لسان صدق وصفاء سريرة وعلو مكانة، وهو كغيره من مريدي الصوفية يعتقد أن الدنيا بمن فيها لم تخلق إلا من أجل محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا قد أورده في قصيدة البردة فقال:

وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضُرُورَةً مَنْ لَوْلَاهُ لَمْ تَخْرُجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ

ويقول:

وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرَّسُلَ الْكَرَامَ بِهَا فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ

ونجد أيضاً في البردة نداء الاستغاثة بالنبوي صلى الله عليه وسلم وذلك عند قوله:

مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ إِلَّا وَنَلْتُ جَوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِّ
وَلَا التَّمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ

ومعنى ذلك: أي ما ظلمني أهل الدهر في وقت من الأوقات وطلبت من النبي أن يدخلني في جواره ليحميني من ضيم الدهر إلا وقربني منه²⁵.

وبالتالي فجل قصائد البوصيري تبشر بصفات الرسول الأعظم وشمائله الخلقية، وتتغنى بمولده ومعجزاته ومنها الهداية القرآنية، وتصور حادثة إسرائه ومعراجه وجهاده، ثم يتوسل بالنبي المشفع، ويختتم قصائده بالمناجاة والتضرع والصلاة على النبي والرضي عن الخلفاء الراشدين وآل بيته الطاهرين.

²³ ينظر: مبارك، زكي (1992)، المدائح النبوية في الأرب العربي، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ص. 142.

²⁴ ينظر: عبد التواب عوض، أحمد (1996)، البردة، القاهرة، دار الفضيلة، ص. 16.

²⁵ ينظر: الهيثمي (2004)، العمدة شرح البردة، تحقيق: بسام محمد بارو، دار الفتح للدراسات والنشر، ص. 411-413.

ونجد أيضاً ممن افتتن بفن المديح الشاعر والفيلسوف لسان الدين بن الخطيب (ت: 5776هـ) حيث جاءت مدائحه النبوية تفيض بعواطف الحب والشوق إلى رؤية المحبوب، وقد صور فيها الشاعر ما يعانيه من وجد وسقام، وهذه المقدمات لوحات فنية مناسبة لقصيدة المدح النبوي لما فيها من عمق نفسي وبعد عاطفي جعلها أقرب إلى الحب أو الغزل الرمزي لتكون وثيقة الصلة بالعواطف الدينية النابعة من حب الرسول (صلى الله عليه وسلم)؛ مما يجعلها تختلف اختلافاً واضحاً عن الغزل التقليدي، كقوله²⁶:

مَا عَلَى الْقَلْبِ بَعْدَكُمْ جَنَاحٌ أَنْ يُرَى طَائِراً بَعِيْرَ جَنَاحٍ
وَعَلَى الشَّوْقِ أَنْ يَشْتَبَ إِذَا هَبَّ بِأَنْفَاسِكُمْ نَسِيْمُ الصَّبَاحِ
جِيْرَةَ الْحَيِّ وَالْحَدِيثُ شُجُونٌ وَاللِّيَالِي تَلِينُ بَعْدَ الْجَمَاحِ

تغلب على هذه اللوحات مشاهد التصوير الذاتي، إذ يعكس الشاعر صورة النفس المعذبة، وما يعانيه من ألم الفراق والوجد، ويغلف لوحته بوشاح من عواطف الصوفية يتجلى بوضوح من خلال قوله²⁷:

لَيْلُ أَنْسٍ دَجَى وَأَقْصِرُ لَبِيلٌ جَادِبَتْ بُرْدَةً يَمِينِ صَبَاحِ
صَاحَ وَالْوَجْدَ مَشْرَبَ وَالْوَرَى صِنْفَانٍ مِنْ مُنْتَشٍ وَآخِرِ صَاحِ
يَا ثُرَى وَالنَّفُوسُ أَسْرَى الْأَمَانِي مَالَهَا مِنْ وَثَاقِهَا مِنْ بَرَاكِ

وقد استطاع لسان الدين بن الخطيب أن يرسم صورة للمقدمة الغزلية في قصائده المدحية، ووفر لها كثيراً من المقومات التي تضيء على لوحته الكمال، وقد ربط بين مشاهدتها بخيوط متينة من العواطف الجياشة، وقد تجلت الرمزية بوضوح في كثير من موضوعاته، ففي افتتاحية قصيدته يكنى باسم سلمى عن حبه لرسول الله، ثم يصور ألمه وحزنه لبعده عنها وأثر الصد والحرم على نفسه، ويشير إلى تعلقه الشديد بها، فما من شيء في الدنيا يستطيع أن يفرق بينه وبينها، ولعل هذا التعلق من الرموز التي يهدف إليها الشاعر دالاً على حبه ووفائه لرسول الأمة محمد بن عبد الله عليه السلام.

²⁶ بن الخطيب، لسان الدين (1973)، الصيب والجهام والماضي والكهف، تحقيق: محمد الشريف قاهر، الجزائر، ص. 388.
²⁷ المرجع نفسه، ص. 390.

الاتجاه الثاني

يعكس هذا الاتجاه واقعية فن المدح في الجزائر إذ مثله أحسن تمثيل نخبة من الشعراء الشعبيين من بينهم الشاعر الكبير سيدي لخضر بن خلوف في قصائده (بك مشعشع مصباحي، صلوا وسلموا على طه المكاوي، طالت الغيبة يا محمد)، وسعيد المنداسي في (العقيقة، ماذا بكات لماحي، يا إمام أهل الله)، وأحمد بن تربيكي في (نيران شاعلة في كبادي، العيد الكبير، يا الوشام رطب يدك)، ومحمد بن مسايب في (ناري وقرحتي وسباب القلب الحزين، يا الوشام دخيل عليك، ما وفاشي طلبي)، وبومدين بن سهلة في (لو ما الفضول يا عجبا، سلم على طه القرشي، يوم الخميس واش اداني)... وغيرهم كثير.

ونحن في هذه الدراسة نختص بما ورد عن الشاعر سيدي لخضر من أشعار تعدت قصائده مائة وسبعين قصيدة²⁸ تناولت تعظيم الخالق سبحانه ومدح خير البرية، ووصف الأمكنة المقدسة كبيت الله الحرام وبيت المقدس وتقديس رجال الدين والعلماء والصحة الصالحة...

فقد نشأ شاعرنا في بيئة مشتهرة بخصال حميدة من الجود والكرم وحسن الضيافة، وهذه القيم مستمدة من تعاليم الإسلام ومن البيئة العربية، وفي هذا الصدد يقول محمد بخوشة: "نشأ لخضر بن خلوف في ناحية جبال مغراوة الجزائرية في وسط كريم مشهور بخصال العرب"²⁹.

وقد أسهمت البيئة الصوفية في جعله رجلاً زاهداً عابداً قائماً لله وحده ومادحاً لنبيه عليه السلام، يتقرب من خالقه بالذكر والعبادة والتهليل والاستغفار، حتى سموه "مداح الرسول". وفي هذا يقول³⁰:

²⁸ فقد جمع محمد الحاج الغوثي بخوشة ديوان سيدي لخضر بن خلوف في حوالي 31 قصيدة، وتم نشره سنة 1958 بالرباط، وأعدت جمعية أفاق بولاية مستغانم من جمع وتحقيق ونشره قصائده في مجلدين سنة 2010

²⁹ ينظر: بخوشة، محمد الحاج الغوثي (1958)، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، الرباط، مطبعة الشمال الإفريقي، ص.37.

³⁰ ينظر: المرجع نفسه، ص.38.

جَوَزْتُ مَيَا وَخَمْسَةَ وَعِشْرِينَ حِسَابَ وَتَمِيمْتَ مَنْ وَرَأَى³¹ سَنِي سَتَ شَهُورٍ
مَنْهَا مَثَاتَ رَبْعَيْنِ سَنَةَ مِثْلَ السَّرَابِ وَمَا بَقِيَ مَشَى فِي مَدِيحِ الْمَبْرُورِ

ونحن نعتقد أنّ مدح سيدي لخضر بن خلوف للرسول (ص) لم يكن من النوع المدحي الذي ألفه الشعراء الذي يطفوا عليه "التكسب" أو "الخوف" أو "الهيبة" وإنما هذا الغزل والمدح يسير في درجة مقامية صوفية تعبر عن حقيقة تعبير المادح لممدوحه، وقد صدق رسول الله حينما قال: "مَنْ أَشَدَّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ"³².

فقد بلغ بقصائده "مقام العشق" حيث ذكر الرسول(ص) في كل وقت وحين، وطلب منه الشفاعة وتوسل إليه، وقرن اسمه مع اسمه، بحيث إذا ذُكر الرسول(ص) في تراثنا الشعبي إلا وذكر معه مداحه الشعبي سيدي لخضر بن خلوف. كيف لا وهو القائل³³:

مَدْحِي مَفْرُوزٌ كَالْحَلِيبِ بِيضٌ صَافِي نَمَدَحَ سَيِّدِ الْعِبَادِ طَهَ الْمُقَطَّافِي³⁵
صَافِي مِنْ عَسَجَدِ الْقُطُوفِ³⁴ مَا دَامَتْ عَيْنِي تَشُوفُ

فكان سيدي لخضر كالظل الدال الملازم للرسول(ص)، يلهج بمدحه ويتغنى بأوصافه، ويسرد غزواته، ويفتخر بنسبه المستمد من الشجرة المباركة الزكية الطاهرة "آل البيت" التي تنبع من نسل سيدنا رسول الله، وفي هذا يقول³⁶:

اللَّهُ يَرْحَمُ قَائِلَ لَبِيَّاتٍ لَكَحْلٍ وَاسْمُ بَابَاهُ عَبْدُ اللَّهِ
الْمَشْهُورِ اسْمُهُ فِي لَنَعَاتٍ مَغْرَاوِي جَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ

وفي هذا الصدد يقول الحلبي: "أَصْلُ هَذَا الْبَابِ أَنْ تَقِفَ عَلَى مَدَائِحِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمَحَاسِنِ الثَّابِتَةِ لَهُ فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ عَلَى حُسْنِ آثَارِهِ فِي دِينِ اللَّهِ، وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الْحَقِّ عَلَى أُمَّتِهِ شَرْعًا وَعَادَةً،

31 وراء.

32 ينظر: النووي، أبو زكريا (1996)، شرح النووي على مسلم، دار الخير، رقم 2832.

33 ينظر: جمعية أفاق، ديوان سيدي لخضر بن خلوف حياته وقصائده، 1/126.

34 حبه للرسول أحسن من الذهب الخالص المصفى.

35 المقتفى.

36 ينظر: المرجع نفسه، 1/24.

فَمَنْ أَجَاطُ بِذَلِكَ وَسَلَّمَ عَقْلُهُ عِلْمَ أَنَّهُ أَحَقُّ بِالْمَحَبَّةِ مِنَ الْوَالِدِ الْفَاضِلِ فِي نَفْسِهِ الْبِرِّ الشَّفِيقِ عَلَى وَلَدِهِ³⁷.

فهذه الدرجة المرموقة التي حصل عليها سيدي لخضر بن خلوف، وبقاء أشعاره إلى اليوم، نابعة عن حبه الصادق الذي لا ريب فيه، "ومحبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعد، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين"³⁸.

ثم إنَّ هذا الولي أصبح مضرب المثل في الأوساط الشعبية، ونعت بأنه "مَدَّاحُ النَّبِيِّ (ص)"، كما كان يمدح حسان بن ثابت النبي (ص)..

فمقام العشق عند سيدي لخضر لم يتولد فجأة، وإنما استقاه بورعه وزهده وحبه، وقد أخذ بنصيب كامل من القرآن واطلع على كتب السير والحكم... وفي هذا يقول في قصيدة "يا سعدي بالرسول سعدي"³⁹:

يَا رَبَّ الْعَرْشِ هَزْنِي رِيحَ التَّشْوِيقِ لِقَامِ الرَّسُولِ النَّبِيِّ مَا صُبَّتْ طَرِيقِ
عَشْتِي وَمَحَبَّتِي مِنْ شِقْ الْمَشْرِيقِ أَنَا مُسْكِينٌ قَلَّ زَادِي
مَا صُبَّتْ مُبِينٌ يَتَّحَمَلْنِي يَا سَادَاتِ يَحْمَلُ رُوحِي مَعَاهُ غَادِي
أَنْشَمُ تَرَابَ أَرْضِ عُرْبَةٍ دُونَ بَحَاتِ يَا سَعْدِي بِالرَّسُولِ سَعْدِي
مُحَمَّدَ تَاجِ الْأَنْبِيَاءِ سَيِّدِ الْأَمَاتِ يَا سَعْدِي بِالرَّسُولِ سَعْدِي

ولسائل أن يسأل لماذا بقي اسم "المَدَّاح" لصيقاً بسيدي لخضر بن خلوف كل هذه السنين؟

و الإجابة لأنَّ الذاكرة الشعبية الجزائرية أبقت على هذا الموروث الشعري محفوظاً مشافهة وكتابة، ونظراً لقوة نظم القصائد وبيانها، واتصالها بشخصية الرسول (ص) الذي له وعاء خاص في المخيلة والذاكرة الشعبية، ونظراً لحالة الحب والعشق المتولدة من نفس سيدي لخضر، لأنَّ العشق في الحقل الصوفي هو "آخر مقامات الوصول والقرب، فيه ينكر العارف معروفة فلا يبقى عارف ولا معروف ولا عاشق ولا معشوق ولا يبقى إلا العشق وحده،

³⁷ السيوطي، أبو بكر (1986)، شرح السيوطي لسنن النسائي، دار البشائر الإسلامية، ص. 115.

³⁸ ينظر: ابن تيمية، التحفة العراقية في الأعمال القلبية، اعتنى به: محمد الرابع عمر موسى، منشورات مركز الإمام البخاري للأبحاث والترجمة، كانو، ص. 57.

³⁹ ينظر: جمعية آفاق، ديوان سيدي لخضر بن خلوف حياته وقصائده، 231/1.

والعشق هو الذات المحض الصرف الذي لا يدخل تحت رسم ولا نعت ولا وصف ... فإذا امتحن العاشق وانطمس أخذ العشق في فناء المعشوق والعاشق... فحينئذٍ يظهر العاشق بالصورتين ويتصف بالصفتين، فيسمى بالعاشق ويسمى بالمعشوق⁴⁰.

وبالتالي فإن شعر سيدي لخضر المدحي لم يكن شعراً وحسب، وإنما شهادة حق ومحبة للمصطفى عليه السلام، و لبيت الله الحرام ورجال الله الصالحين والعلماء، وكان معترز بكونه من أهل الجزائر وحاميهما، كما نجد فيه محطات عالية وصفات إنسانية متميزة في الكرم والصدق والنقاء والأمانة وحفظ العهد. فكان حريصاً كل الحرص على الاقتصاد في القول، فلا يسرف ولا يغلو، فهو يعتدل في الثناء، وإذا أحسَّ إزاء صفة من الصفات أو معنى من المعاني يكاد يخرج عن حدة رجع بما يجعل قوله مقبولاً، فيقبل على مدح محبوبه عليه السلام ونحوها، حتى لا يتجاوز القصد، وبالتالي فإن شعره المدحي رسالة محبة وتقدير، خلقتها كلمات بليغة ونقلتها إلينا عبر عصور زمنية متلاحقة، ولم تستطع يد الزمن حجزها عنا، فالخلود عرف طريقه إلى ذلك الشعر، وعرف ذلك الشعر طريقه إلينا، وهذا هو السر بين أشعار المَدَاحِ المحب وبين المَدَاحِ لأجل المدح، وقد صرح بهذا المعنى فقال⁴¹:

صَبْرِي عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ خَيْرَ الْأَنَامِ صَبْرُ الْيَشَاشِرِ الرَّضَاعِ الصَّبْيَانِي⁴²
يَا صَاحِبَ الْوَسِيلَةِ وَالْمُنْبَرِ وَالْعَلَامِ وَالتَّاجِ وَاللُّوِّ وَالْمَحْمُودِ كَفَانِي
اسْمِي مُجَاوِرِ اسْمِكَ عَقْدَ كُلِّ فَا مٍ وَاسْمِكَ مُجَاوِرِ اسْمِ الْقِيَوْمِ اقْرَانِي

ويقول في موضع آخر⁴³:

سَعْدِي مَعَ النَّبِيِّ بَتَّ مَعَاهُ الْبَارِحُ مَشْرَفُ النَّسَبِ جَابَهْلِي⁴⁴ مُؤَلَانَا
أَطُولُ مِنَ الْقَصِيرِ أَحْمَدُ زَيْنِ النَّارِقِ⁴⁵ وَقَصِيرٌ مِنَ الطَّوِيلِ النَّبِيِّ الْعَدْنَانِي

⁴⁰ الجيلي، عبد الكريم (1970)، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، شركة البابي الحلبي، القاهرة، 65/1.

⁴¹ جمعية أفاق، ديوان سيدي لخضر بن خلوف حياته وقصائده، 2/112.

⁴² الأطفال الصغار.

⁴³ المرجع السابق، 139/1.

⁴⁴ أتى به.

⁴⁵ أصلها "زين النورق" وغيرت بسبب العلة الشعرية، وتعني الجمال والبهاء والأشراق.

مميزات المديح عند سيدي لخضر بن خلوف:

* المدح عند سيدي لخضر بن خلوف رتبة ومقام نابع من الرؤية المنامية والمشاهدة الحقيقية، وهذا عكس المداحين الآخرين الذين لا يرقون لهذا المقام، إذ يقول⁴⁶:

بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ شَرِيعَةٌ هُوَ يَشُوفُ وَإِنَّا نَقْرَأُ لَسَطَارَ
يَوْمَ الْخَمِيسِ بَاتَ مَعَايَا سَيْدِي مُحَمَّدَ الْفَضِيلِ سَيِّدِ الْحَسَنَيْنِ
بُودْنِي سَمَعْتَهُمْ يَتَلَوْنَ فِي يَاسِينِ زَادُوا عَلَيَّ الْحَزَابَ مُضِيفَ جَدَادِ

ويقول:

زَارْتِي غِيَوَانُكَ وَالشُّوقُ وَالْمَحَبَّةُ شَاهِدِي جَبْرِيْلَ فِي ذَا الْقَوْلِ غَيْرَ بَصَحِ
* المدح عنده واجب و ذكر وقربة الى الله تعالى إذ يقول⁴⁷:
يَا عَالِي النَّسَبِ لَا تَنْسَى الْمَدَاحَ تَكَلُّوا عَلَيَّ اللَّهُ الْمَوْلَى وَعَلَيْكَ
فِي كُلِّ أَرْضٍ دَرَّتْ عَلَيْكَ الْبَرَّاحُ مُحَمَّدَ الشَّرِيفِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ
مُرَادَ حَاجَتِي يَا سَيِّدَ الْمَلَّاحِ حَرَّرَ جَمِيعَ مَنْ يَمْدَحُ بَيْتَ عَلَيْكَ

ويقول⁴⁸

مَنْ حَفَظَ قِصَايِدِي وَلَوْ زَوْجَ آيَاتِ اسْتُرَهُ لَيْلَةَ اللَّحَادِي
* المدح عنده لتفريط على ما فاتته وما أصابه من غرر شيطاني. إذ يقول⁴⁹:
يَا بْنَ خُلُوفٍ لِكَحْلٍ ضَيَّعْتَ شَبَابَكَ فِي دَنِيَّةِ الْغُرُورِ عُمْرَكَ مَرَّ خَسَارَةَ
النَّفْسِ وَالْهَوَى وَالشَّيْطَانَ اسْبَابَكَ أَبْنَاوَا لِيكَ حُفْرَةَ وَطَلَسْمُوا لَبَّصَارَا

* المدح عند سيدي لخضر بدون مقابل مادي أو شخصي إذ يقول⁵⁰:
بْنَ خُلُوفٍ عَاشِقٌ مَدَاحٌ يَمْدَحُكَ لَنْ تَفْنَى عُمُرُو
رَاجِي نَحْلُو⁵¹ بَيْنَ لَجْبَاحٍ وَكُلُّ طَيْرٍ يَعْينُ وَكُرُو

⁴⁶ المرجع نفسه، 136/1.

⁴⁷ المرجع نفسه، 138/1.

⁴⁸ المرجع السابق، 231/1.

⁴⁹ المرجع نفسه، 141/1.

⁵⁰ نفسه، 189-158/1.

بَعْدَ حَوْضِكَ تَذْهَبُ لَوَزْرُ نَبْعِيكَ تَكَافِي تَمَجِيدِي

* شعره ليس معروضا في الأسواق أو في الطرقات، وإنما يتلى في المساجد والزوايا ومحاضن الطرق الصوفية، إذ يقول⁵²:

مَا مَدَحْتِكَ بِالْعُودِ وَلَيْسَ بِالرِّيَابِ مَا شَطَحْتَ بِطَمَعٍ فِي اسْوَاقِ مَرَاخِ

جِئْتُ أَنَا عَاقِبُ بَايِعَ مَا نَشْرِي تِجَارَتِي خَيْرَ الْأَتَامِ

يَا رَسُولَ اللَّهِ الْحَائُوتُ بِالشَّرَى⁵³ وَكُلُّ مَنْ يَشْرِي مِنِّي صَلَحُوا الْأَجْرُ

* مدحه نابع من توسل بالقرآن وبالرسول الكريم وبالخلفاء والصالحين إذ يقول⁵⁴:

يَا رَبِّي بَجَاهِ سُورَةِ أَلَمْ نَشْرَحْ أَشْرَحْ صَدْرِي وَيَسِّرْ أَمْرِي يَا مَسْئُولُ

بَجَاهِ عُثْمَانَ وَبَنِ عَوْفٍ⁵⁵

وَالْمَذَاهِبُ مِنْهُمْ الْحَنْفِي وَسَتِ أَرْكَانِ⁵⁶ وَالْقُطُوفِ

* مدحه لرسول الله موهوب ووقف الله تعالى إذ يقول⁵⁷:

قَاصِبْتِ وَفَنَيْتِ يَا ضِيَا عَيَانِي طُولَ الزَّمَانِ رَأَيْتِ سَاهِرَ الدِّيَجُورِ⁵⁸

لَوْ صَبْتِ يَا الْمُخْتَارَ التَّهَامِي نَسَهَرَ طُولَ عُمْرِي عَلَيْكَ الدِّيَجَانَ

51 طريقه ومنهجه.

52 نفسه، 151/1.

53 المقصود من هذا البيت أن مدح سيدي لخضر بن خلوف للرسول شرف وتجارة رابحة وعليها إقبال ونجاة، مصداقا لقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" سورة الصف: 10-11، ومصداقا لقول الرسول (ص): "مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلَّا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلَّا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ" ينظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الجواب الكافي، ابن القيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، 1997، 40.

54 المرجع السابق، 128/1.

55 الصحابي عثمان بن عفان الأموي القرشي، والصحابي عبد الرحمان بن عوف الزهري القرشي وهم من العشرة المبشرين بالجنة.

56 المقصود بها أركان الإيمان الستة وهي: الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

57 المرجع نفسه، 182/1.

58 الديجور والديجان تعني ظلمة الليل.

الخاتمة

من خلال ما قدم نفهم أن مصطلح "المداح" ارتبط مفهومه في الثقافة الشعبية الجزائرية برباط مقدّس، أي بالمديح الديني والنبوي بحيث كانت الأسواق والأعراس والمناسبات الدينية مسرحاً للفرجة والتلقي واستعراض الخطب و الأقاويل، وكان الشعر الملحون -الذي كان أغلب ناظميه من منتسبي الصوفية- وعاءاً يستقي منه المداح أغراضه ومواضيعه، خاصة ما يتعلق بموضوع (الإصلاح، الجهاد، الكرم، الوفاء، حب الوطن..)، ولا توجد وسيلة أكثر فاعلية لإيصال هذه الخطابات إلى الناس من المديح أو الغناء، وهذا هو بالضبط الدور الذي كان يقوم به "المدّاح"، ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار ظاهرة (المداح) في المتخيل الشعبي الجزائري اختراقاً فنياً للمجتمع عن طريق المبادئ الصوفية، أو بتعبير آخر توظيف الأسلوب الغنائي والحكواتي كوسيلة لتحريك الخطاب الديني الصوفي على مستوى الطبقات الاجتماعية المختلفة وخاصة البسيطة منها.

ولا شك أنّ مدائح سيدي لخضر بلغت انتشاراً أوسع وبقاءً أطول عندما تحوّلت إلى طبع و أناشيد غنائية، بحيث جمعت جلال الكلمة وقوتها وصدق العبارة وجزالتها، فحفظتها شفاه الرواة والقوالين والحكواتيين وحملتها فوق موجات الأثير لتعرف في أقاصي الشرق والغرب. فحافظ بالتالي الشعر على مكانة الأولى بين الفنون الإسلامية.

المراجع

- الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، عبد الكريم الجيلي، شركة البابي الحلبي، القاهرة، 1970.
- الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- الشعر الديني الجزائري الحديث، عبد الله الركيبي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، 1981م.
- الشعر الملحون الجزائري إيقاعه وبحوره وأشكاله، أحمد الطاهر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1975.

- الكنز المكنون في الشعر الملحون، محمد قاضي، مطبوعات crasc 2007.
- المداحات، تاريخ وأصالة، خالد بن فافا، كراسات المركز، رقم 17، 2009.
- المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، صيدا بيروت، منشورات المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، 1935.
- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، امقران الحفناوي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1985.
- دراسات في الأدب الشعبي التلي بن الشيخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.
- كشف القناع عن آلات السماع، أبو علي الغوثي بن محمد، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1995.
- الشعر الديني الجزائري الحديث، عبد الله الركيبي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، 1981.
- بخوشة محمد بن الغوثي، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، شاعر الدين والوطن، الرباط، مطبعة الشمال الافريقي، 1958.
- سيدي لخضر بن خلوف حياته وقصائده، الجزائر، منشورات أفاق، دار الغرب، 2006.

المخطوطات الشعرية:

- مخطوط بن سي موسى "سي سي"
- مخطوط بن عمر الزهوني.
- مخطوط عبد القادر بطبجي.